

الفصل الرابع

صعود الشمس في السماء

(ليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم . وجهة النعم الحبر من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس) .
(والاجتهاد القياس) الشافعي

كانت حروب الجزيرة العربية صدى الصوت المهيب الذي أيقظ المسلمين ووجد جزيرة العرب . وكانت بطولات الدرعية بُشريات بانتشار ضوء النهار ، ولما لم يُلقِ العرب السلاح كان انتصار دعوتهم مسألة زمن . وطريق التاريخ طويلة ليست الأحداث أو الأشخاص فيها إلا علامات طريق :

لقد انتصر الأتراك مراراً على المسلمين ، لكنهم كانوا يهزمون أمام الإسلام فيسلمون . وعندما ينتصر الإسلام ينتصر العرب كمثل ما ينتصر العرب كلما انتصر الإسلام .
والإسلام يخدمه أهله إذا عملوا به ، وكثيراً ما يخدمه أعداؤه إذا فهموا مبادئه .
لقد انسحب «نابليون» من مصر وخلف على جيشه «كلبير» . فلما قتل «كلبير» تولى قيادة الجيش الفرنسي بعده (مينو) . وهدى الله (مينو) للإسلام فأسلم .

وانهزم نابليون عن مصر ، فراح يطير في آفاق أوربة من نصر إلى نصر ، ويهز عروشها وهي متفرقة ، حتى إذا قهرته وهي مجتمعة - بدأت مبادئ الثورة الفرنسية في الانتشار بعد إذ انهزمت جيوشها . أن كانت تحمل مع عتادها الحرقى مبادئ ينادى بها الإسلام هي الحرية والإخاء والمساواة وحق تقرير المصير . ثم تابعت ثورات التحرير في أوربة . وكانت تركيا أول الخاسرين ، فاستقلت اليونان عنها ، وتتابع انفصال الدول منها مملكة مملكة في أوربة .

وكان شروق الدعوة الوهابية من جزيرة العرب خسراناً مبيئاً للأتراك قبل قيام الثورة الفرنسية . وفيها بعدها ، فهي قد شرقت وغربت كهيئة انتشار الإسلام من جزيرة العرب ، وكانت شرارتها تشعل الضوء والدفع ، وتحدث القوة المحركة في بلدان تدين بالولاء لتركيا فانهت أمرها بالاستقلال عنها . وصاحب انتشار الدعوة ظهور أثر المطبعة وتعليم الناس ، فتتابع على مبادئ الدعوة رجال لا يكتفون بمجالس العلم ، بل يعملون ، ويجاهدون في شتى الميادين ، فكرية ، أو سياسية ، أو

عسكرية . وتعمل الانتصارات والهزائم في خدمتهم ، لنشر المبادئ التي نادى بها محمد ابن عبد الوهاب .

والذين يعلمون ولا يعملون يسخعون أنفسهم (١) .

• • •

١ - لقد علمت تجارب الدعوة المسلمين على مدار قرون ثلاثة أن الوسيلة القاصدة للإصلاح هي البدء بتطبيق الشريعة وتنقية عقائد المنحرفين ، لإقامة الجماعة الصالحة التي تثبت الرجال الصالحاء ، وإن احتاجت إلى سنوات . وما السنوات في عمر الإسلام إلا سويعات .
ودرس الدعوة قائم كذلك للعالم . فالشرق والغرب الآن يرجعان البصر بمنة وسرة يبحثان عن مخرج من شرائك أوقعتهما فيها عبادة المادة والإحساس الذي يستبد بضائر الناس كلما حققوا نصراً علمياً أو اقتصادياً ، لا يقابله نصر على أنفسهم ، إذ يتجلى لهم أنهم يظفرون بفراغ لا يملؤه إلا القيم الدينية التي تهب معنى للحياة . فالطريق مفتوحة أمام رجال الدعوة الإسلامية إلى القلوب في الشرق والغرب . يقول جورج سارطون ما يردده الآن كثيرون :

(لقد سبق للعرب أن قلعوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم طوال ألفي سنة قبل أيام اليونان ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون ، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم في المستقبل القريب أو البعيد !) .

٢ - أما المناخ السياسي المحض للإصلاح فقد سار عليه الأتراك في القرن التاسع عشر ، وانتهى بهم في القرن العشرين إلى دولة علمانية حرص دستورها على رفع الدين من نصوصه ، ثم اطرحت مجلة الأحكام العدلية المستقاة من الفقه الحنفي واستوردت قوانينها من تشريعات سويسرية فصنعت في نفسها ما حاول أن يصنعه نابليون . إذ كان بمصر ، فعرض في أول جلسة للديوان استبعاد الشريعة لاستيراد قوانين فرنسية فيما بعد فرفض علماء الأزهر .

وكهنية نابليون اختط محمد على للإصلاح خطة استيراد « عقلية أوربية » وانتهت خطته بحفدته إلى استيراد التشريعات الأوربية بدلاً من الشريعة ! .

فلما احتلت الجيوش البريطانية مصر في سنة ١٨٨٢ كان من انتصارات البريطانيين على المصريين

(١) عاصروا لله الدهلي في الهند (١١١٤ - ١١٧٦) محمد بن عبد الوهاب من مطلع حياته وكان علماً بشار إليه بإنسان في مذهب أبي حنيفة ، يستكر الكثير من الانحرافات التي تجارها الدعوة ومع ذلك لم يتأثر به المجتمع الإسلامي إلا كهيئة تأثير الفقهاء في العارفين عليهم . لأنه كفى بالعلم دون العمل ولم يجاهد في سبيل فكره في حين أحدث السيد أحمد (١٧٨٢ - ١٨٣١) - إصلاحاً كبيراً في الهند بجهاده ، ولم يكن خطه من العلم حظ الدهلي .

خاصة والمسلمين عامة - أن قرر مجلس وزراء الاحتلال العدول عن قرار مجلس الوزراء في سنة ١٨٨١ بتقنين الشريعة الإسلامية ، وأقر الإنجليز استيراد قوانين أوربية لتطبيقها على المصريين فلم تقدر القوانين على أن تجعل المصريين أوريين ، ولم يقدر المصريون مع وجود هذا القانون أن يطبقوا الشريعة إلا فيما يتعلق بالعبادات والأحوال الشخصية .

٣- وأما المنهج التعليمي فنهج تجريبي يستعمل الزمن إذ لا تسعفه القدرة ، وبفت في عضده خذلان السلطة له ، مع تمويله عليها . وقد سلكه كثيرون في القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلاد - أظهرهم عالمان مصريان من أشهر علماء الأزهر أولها رفاعة الطهطاوى (١٧٩١ - ١٨٧٢) وقد أبعداه السلطان إلى السودان . فلما رجع انكب على التأليف والترجمة والتعليم وسار محمد عبده أشواطاً بعيدة على المنهج ذاته . وقد نفتته من الوطن محكمة عسكرية . فلما عاد سار على دربه وأيده الشعب فيه .

والمنهج أكثر اقتراناً بمحمد عبده لأنه «جاهد» الإنجليز والأتراك والخليويين والعلماء المعممين ، وتوجه طول حياته وجهة إصلاح الأزهر . وفي الإصلاح الديني إصلاح الجماعة . فالمنهج التعليمي يمشى بساقيين هما القيم الدينية وتأييد السياسيين أصحاب السلطة . ومن ثمة عثرات أصحابه كلها أصاب الوهن ساق السياسة .

“ “ “

من أجل ذلك كثر خلاف دعاة الإصلاح مع الساسة ، واختط كل من تلاميذ محمد بن عبد الوهاب للإصلاح خطة تنجحه : فكان المهدي في السودان أقدر على الإصلاح ؛ لأنه «حارب» وانتصر وقاد المجتمع . وعاش السنوسى بدعوته بعيداً عن مجال السلطة في زوايا أقاليمها بالجل أو في الصحراء التي تعيش فيها القبائل . واقتصر الشوكافى وهو في سدة الحكم على القضاء والتأليف في محاربة البدع . وسار الألوسى بالعراق والكواكبي في الشام على الدرب ، أما السيد أحمد في الهند فقد استعمل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وتلميذة هؤلاء لابن عبد الوهاب لا يستبعدها عدم اللقاء أو انصرام الزمان ؛ فلقد تصارمت الأجيال بين العمرين . وعمر بن عبد العزيز نخبه المدرسة التي تعلقت بأسباب عمر بن الخطاب وإن لم يلقه .

الشوكافى : محمد بن علي الشوكافى (١١٧٣ - ١٢٥٢ هـ) أفق في العشرين من عمره وولى القضاء بصنعاء باليمن حيث الأئمة - الحكام - شيعة . والشعب قسماً فسكان المرتفعات شيعة وسكان تهامة شافعية .

وانضافت إليه الوزارة بعد سنوات ، فتمرس بمسئولية الحكم . وخلع ريقه التقليد ، فلم يحصر

نفسه في دائرة المذهب الزيدى ، بل بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق .

وقد ترجم حياة آل تيمية في خطبة كتابه (نيل الأوطار في شرح « متقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار » لابن تيمية « مجد الدين » .

بهذا يلتقى هو وابن عبد الوهاب في منبعها العلمى وفي سلفية آل تيمية . ولما مات ابن عبد الوهاب رثاه الشوكاني أكثر من مرثية .

يقول في نيل الأوطار كلاماً قاله من قبل ابن تيمية « تقى الدين » وابن القيم وابن عبد الوهاب (وكم سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاصد يبكى لها الإسلام . منها اعتقاد الجهلة كاعتقاد الكفار للأصنام ، وأعظم من ذلك ظنهم أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر ، فجعلوها مقصداً يطلب لقضاء الحوائج ، وملجئاً لنجس المطالب ، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم . وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا ، وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً كانت لجاهلية تفعله إلا فعلوه ، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حميةً للدين الخفيف لا عالماً ولا متعلماً ولا وزيراً ولا ملكاً .

وقد توارد علينا من الأخبار ما لا يشك فيه أن كثيراً من هؤلاء « القبوريين » أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلانى تعلم وتلكأ وأنى واعترف بالحق . وهذا من أيّن الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال : إنه تعالى ثانى اثنين أو ثالث ثلاثة ! فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين ، أى رزء للإسلام أشد من الكفر وأى بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ؟ وأى مصيبة يصاب بها المسلمون مثل هذه المصيبة ؟ وأى كفر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك (المين) ؟

وأكثر الشوكاني من التأليف في أسباب تأخر المسلمين وبدع الصوفية الفلاسفة . ومن تأليفه

(١) يقول في بعض مرثياته عن محمد بن عبد الوهاب :

لقد مات ضود العلم قطب رضى العلا	ومركز أودار الفحول الأفاضل
أفق يامعيب الشيخ ماذا تعينه	لقد عبت حقا وارغفت بباطل
أفيقوا أفيقوا إنه ليس داعي	إلى دين آباء له وقبائل
دعا لكتاب الله والسنة النبي	أناها بها طه النبي خير قاتل

ويقول في آل سعود :

هم الناس أهل تفصل يعرف فضلهم	جميع بني الدنيا فاما للمجادل
لقد جاهدوا في الله حق جهاده	إلى أن أقاموا بالظني كل مائل

كتاب (قطر الولي على حديث الولي) ، وفيه بنى معرفة أى ولي للغيب ، وقرر مذهب ابن تيمية في أن أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، وأن الولاية لله ومن الله ، يتألفها من يعمل عملاً صالحاً في الفروض والنوافل .

وكمثله يوجب الاجتهاد ويندد بالتقليد يقول .

(والذى أدين به أنه لارخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف وشر من مهات كليات أصول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة . ولا يغفل التمسك بما يخالفه من الرأى سواء كان قائلاً واحداً أو جماعة الجمهور) .

وفي كتابه (الدواء العاجل لدفع العدو الصائل) به على «أن الفتنة لا تنزل بالأمة ويتغلب عليها العدو إلا لما ترتكبه من المعاصي عقوبة من الله لها مثل عقوبة الخوارج ثم القرامطة والباطنية ثم الترك ، وكما يقع كثير من تسليط الفرنج وغيرهم» .

وانتشر علم الشوكاني في الهند - وباكستان الحالية - وفي سائر ديار المسلمين ومصر خاصة ومن كبار تلاميذه محمد صديق خان (١٢٤٨ - ١٣٠٧) أمير مملكة بهوبال .

السيد أحمد : حج السيد أحمد (١٧٨٢ - ١٨٣١) من الهند في سنة ١٨٢٢ ، والسعوديون منهزمون من بضع سنين لكن أنباءهم تذيع أسباب الدعوة للمذهب ، ثم عاد إلى البنجاب ينشرها في رقعة كبيرة في شمال القارة الهندية حتى البنجاب .

وكثر أتباعه واستعملوا القوة لمقاومة البدع ، وخشيت بأسهم الحكومة الإنجليزية واعترضت طريق الإصلاح التي سلكوها .

وظهر أثر السيد أحمد بالإصلاح التعليمي والاجتماعي بين أسباب النهضة التي نهضتها الهند وباكستان في القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد .

السيد محمد بن علي السنوسي : (١٢٠٤ - ١٢٧٦ = ١٧٨٧ - ١٨٥٩) من ذرية المثنى ابن الحسن بن علي .

قضى بواكير حياته في خواتيم الملحمة التي صنعتها دعوة ابن عبد الوهاب ، وتنقل بين صحراء مستغام بالجزائر ، وبين جزيرة العرب ذهاباً وجيئة .

طلب العلم في فاس بالمغرب ، ورحل إلى مكة ف تلقى العلم على علمائها ، وبني زاوية للتعليم في جبل أبي قبيس بمكة ، ثم قفل راجعاً إلى الجبل الأخضر في ليبيا سنة ١٢٥٥ ، فأكثر من بناء الزوايا هنالك ، ثم رجع سنة ١٢٦٣ إلى مكة يقيم في الزاوية ، ويحدث الحديث ويفقه الطلاب ثم قصد إلى مصر سنة ١٨٤٠ ليلقى بها عامين ، فألقى دروساً بالأزهر ، وأصبحت القاهرة بعد ذلك ملجأ

لبنيه كلما أهدق بهم خطراً ، بعد إذ صار إليهم ملك ليبيا .
ومن القاهرة بعث إلى واحة جغبوب بالصحراء في وسط أفريقية ، فبنوا له زاوية انتقل إليها
سنة ١٢٧٣ لنشر طريقته إلى أن توفي سنة ١٢٧٦ .

وفي سنة ١٣١٣ انتقل مركز الدعوة من جغبوب إلى واحة الكفرة .
والسنوسيون يركزون على التعليم وتحفيظ الكتاب الكريم وتضييف ابن السيل ، ليعلموه العقيدة
الصحيحة ، وشراء العبيد وتحريرهم ، وإنكار التضرع للأولياء ، وزيارة القبور للتوسل ، وشرب القهوة
والتدخين ، ويحذون على السعي للرزق ، فالسنوسية منهاج حياة حاجر الأساس فيها هو التعليم ونشر
الإسلام على أساس التوحيد الخالص .

محمد بن أحمد «المهدي» ولد سنة ١٨٤٣ ومات سنة ١٨٨٥ . من أسرة قيل : إنها من الأشراف
الحسينية أصلها في مصر بمحافظة أسوان . حفظ القرآن ودرس التفسير وصار عضواً في الطريقة
السنانية التي قامت في السودان في أوائل القرن . وانتقل إلى (جزيرة أبا) ، فأقام خمسة عشر عاماً
يهدى الناس إلى الدين الصحيح ، ويمنع الأذكار وينهى عن التبرج والإقبال على الملذات ويأمر
الناس بالزهد .

وفي سنة ١٨٨١ أعلن أتباعه أنه المهدي المنتظر ، مع إلحاح الرجل في الإفصاح عن أن مهمة
حياته هي إحياء السنة وتعليم العقيدة الصحيحة .

ولما نجحت دعوته أعلن أنصاره الثورة على الحكومة ، وكانت مصر والسودان دولة واحدة ،
فحارب جيوش الحكومة - وكان يقودها إنجليز يضمرون لها الشر بعد احتلال الإنجليز لمصر سنة
١٨٨٢ - واستولى على الخرطوم سنة ١٨٨٥ . وأعلن أنه يريد أن يأسر القائد الإنجليزي في الخرطوم
حياً ليفك به أسر القائد المصري أحمد عرابي الذي نفاه الإنجليز إلى إحدى جزرهم بعد هزيمة
الجيش المصري سنة ١٨٨٢ في معركته مع الإنجليز .

انتصر المهدي فأقام دولة بالسودان . وأصدر التشريعات لمقاومة البدع والعادات التي لا تقرها
الشريعة . وأقام الحدود . ومدد حد القذف فعاقب بنفس العقوبة على كل لفظ شوه وجه الأدب .
وطبق حد الخمر وجلد على التدخين ثمانين جلدة مع حبس أسبوع . وعزز على الرقص والقمار .
وقلل المهور فللبكر عشرة ريالاً ولللثيب خمسة . وأباح طلاق زوجة الغائب بعد سبعة أشهر إذا لم
يترك لها ما تنفقه إلا أن يكون في جهاد .

واختار مذهب أبي حنيفة في فقه المعاملات .

وضع المهدي وثورته في مكانها الصحيح في التاريخ تصريح من الشيخ محمد عبده حيناً

قصد إلى لندن بعد نفيه من مصر فقال للحكام الإنجليز : (لاخطر من حركة المهدي . إنما الخطر على مصر من وجود الإنجليز فيها . فإذا غادر الإنجليز مصر فالمهدي لن يرغب في الهجوم عليها ، وهو الآن محبوب من الشعب المصري ، لأنهم يرونه المخلص لهم من الاعتداء الأوربي ، وينضون إليه عند حضوره) .

محمود شكرى الألوسى : (١٢٧٣ : ١٣٤٤) الألوسيون أشراف في العراق . أشهرهم أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسى صاحب التفسير الشهير (روح المعاني) ١٢١٧ - ١٢٧٠ . وكان مفتياً حنفياً للعراق ومن أبنائه عبد الله (١٢٤٨ - ١٢٩١) جلس للقضاء على مذهب أبى حنيفة بعد إذ كان شافعيًا . ومن أولاد عبد الله محمود شكرى الألوسى المعروف بجهن الدين أبى المعانى الألوسى .

تعم محمود شكرى الألوسى في حديثه على أبيه ، فلما مات كلفه عمه السيد نهران خير الدين الألوسى (١٢٥٢ - ١٣١٧) مؤلف كتاب (جلاء العينين في محاكمة الأحمديين) : أحمد بن حجر وأحمد بن تيمية . ومن تأليفه كذلك مختصر ترجمة ابن الجوزى لأحمد بن حنبل . وكان يستنسخ مريديه وتلاميذه كتب ابن تيمية ليتدارسوا مبادئه ، ويؤلف الكتب في ذم الدين يستغيثون بغير الله والمعطين والمنشئين من المتصوفة والقادحين في فقه ابن تيمية .

كما ألف كتاباً أسماه (فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب) وكتاباً أسماه (القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع) . وكان مدافعاً من بقايا عتاد حرقى ، نصبه الأتراك في بغداد سنة ١٠٤٧ فأصبح وثناً يحج إليه العامة ويقدمون النذور له !
وفي مؤلفه (تاريخ نجد) شرح العقيدة السلفية وشأن الناس ومعايشهم ، فتحدث عن أمراء

(١) صار محمود شكرى رئيس القضاة في حدى مدائن بغداد . وقدر ثروته لثمة لمعات شرقية في استيلاكهم بالسيد كذا . مع الألب في أحوال العرب) سنة ١٨٨٣ . ثم تعدد الأتراك من بغداد زمان . ثم أملاً سراجة فرد عوا في قومه .

مد هجعت الجيوش البريطانية على العراق بعد الحرب عظمى الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) استعانت تركيا بأمير جاد (عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود) واستعانت بإحدى من حبه هو محمود شكرى الألوسى بدعوة . وأثنى الأمير له معاذيره وبعض الأسوة في مناورات دول يختصب بأرض العرب .

وفي سنة ١٣٣٥ سقطت بغداد في أيدي الأتراك فعمدوا على محمود قضاء بغداد فخصب لأفاده فتبخر الإسلام في بطنه ، وقد كان يستصحب قول أبى حنيفة : لا تفتش أبواب المسلمين فالت لاخصب من ديارهم شيئاً إلا حصه من ذلك أفضل منه !

آل سعود وجهادهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأرخ لعلماء نجد ، وخص منهم محمد بن عبد الوهاب (١) .

محمد عبده : - (١٢٦٦ - ١٣٢٣ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥) .

تلمذ محمد عبده لجمال الدين الأفغاني ، وكتب في الصحف وألف رسالة الواردات عم حاشية على شرح الدواني ثم تخرج من الأزهر سنة ١٨٧٧ ، فعين مدرساً به ، فدرساً بدار العلوم ، فحرراً بالوقائع الرسمية سنة ١٨٨٠ ، ثم اشترك في الثورة العربية سنة ١٨٨٢ وحوكم ونفى في العام ذاته . وأسس في منفاه مع جمال الدين جريدة العروة الوثقى في باريس لإيقاظ أهل الإسلام وعاد إلى مصر فعين قاضياً سنة ١٨٨٩ . فمستشاراً بالاستئناف فعصواً بمجلس الأزهر سنة ١٨٩٥ ، ففتياً للمسلمين سنة ١٨٩٩ ، ف رئيساً لنجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٩٠٠ ، فتابع على رياستها بعده سبطان مصر حسين كامل ، والأمير يوسف كمال . فعُدلى يكن فمحمد محمود من رؤساء الوزارة فشيخاً الأزهر المراغى ومصطفى عبد الرازق .

وفي سنة ١٩٠٥ استقال من مجلس إدارة الأزهر احتجاجاً على الخديوي وبعد أشهر وافته منيته ، فلم يشغل أحد مكانه في أمة الإسلام حتى هذه الساعة . وهو أكبر علماء الأزهر أثراً في الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر ، والكلام عنه كلام عن واقعنا ، ولا تزال كلماته في العروة الوثقى برامج إصلاح لعالمنا المعاصر . وكلامه في البدع كلام السلفين والمتكلمين ، وطريقته في الإصلاح طريقة « الأصوليين » و « العاملين » جميعاً .

يقول إثر عودته من منفاه عن أصول منهجه للإصلاح : (إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار . وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة وأن نذهب إلى مكان بعيد عن

(١) قال عنه المستشرق ماسينيون وهو يرثيه : (كتب ليحب للمسلمين المذهب الحنبل على الطريقة الحديثة لوهابية ، وقد نشر كل هذا باسم مستعار) ولا شك خفيت بعض الكتب على ماسينيون فالألوسي قد كتب كتاب (فضل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب) وقال في تقديمه (الإمام محيى السنة ، ويحدد الشريعة النبوية أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الجدوى الحنبل تعلمه الله برحمته ...)

فلم يكن الألوسي ليخفى أويخاف أويكتب باسم مستعار . وأجمل الأب أنستاس الكرمل حياة محمود شكرى الألوسي وشخصيته في الكلمات التالية عندما رواه : (كانت كتاباته غارة شعواء على الحرفات المتأصلة في قنوب الجهلة والتقاليد المؤهومة التي لا تنصيب لها من الدين ... وكان قد وصل إلى حالة قاسية من الحاجة إلى المال في عهد الاحتلال البريطاني ، لأن الأتراك أفقروا البلاد ، فلما عرف ذلك المعتمد السامي (البريطاني) يرعى كوكس أهدى له ثلاثة ديتار ذهباً إنجيزيا وكتفى بتقديمها إليه . فلما أتته بها رفضها بتاتا وقال : (خير لي أن أموت جوعاً من أن آخذ ما لم أتحب في كسبه) إلا أن لافته كانت وقرا على وعلى عبه فتكلمت مع أبى الأمر وتمكنت من أن يعين قاضى قضاء المسلمين في العراق . فلما وقف على تنصيبه أبى وقال : (إن هذا المقام يستلزم علماً زاهراً وذكماً لا غبار عليها ووقفاً تاماً على الفقه . وأنا لا أشعر بذلك . ووجداني يحكم على بأنى غير متصف بالصفات المطلوبة لمن يكون قاضى قضاء المسلمين) .

مراقبة الحكومات فتعلم ونرى من نختار من التلاميذ على مشربنا فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار؛ فقال : أنت مشيط !) . . .

وسنراه رجل قول وعمل بلغ في كل منها الذروة : إلى الوظائف الكبرى ويخوض فيها المعارك الضخمة ، ويتعلم الفرنسية . ويفهم بكتاباته أخبار المسيحية وفلاسفتها أمثال هانوتو ويكتب في الصحف . ويفسر القرآن ، ويصب اللعنة على السياسة الإنجليزية وهو في العاصمة الإنجليزية . وسنراه الشيخ الكبير لمدارس المصلحين والسياسيين المصريين كافة ، وفي طليعتهم سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ ، وقاسم أمين قائد حركة تعلم المرأة ، والشيوخ والعلماء الأحرار في الأزهر محمد مصطفى المراغي ومصطفى عبد الرازق وعلى سرور الزنكلوني وعبد المجيد سليم ومحمود شلتوت ، كما رأس ، وهو في الوقائع الرسمية ، سعد زغلول وإبراهيم الهلباوي ^(١) ووفاز زغلول وعبد الكريم سليمان وتعلم في رياسته رؤساء الوزارات سعد وعدلى ورشدي وثروت ومحمد محمود والزعيمان محمد فريد وطلعت حرب والشيخان المراغي ومصطفى عبد الرازق . وظل على ما بدأ به حياته في عهد الطلب متقشفاً زاهداً يقاوم الخرافات والجهالات في كل موقع شغله أو اطلع على عيوبه أو استعان به أصحابه لإصلاحه .

• • •

ولما كرثت مصر كارثة الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ واجتمع عليها الحكم التركي يمثله الولاة من أبناء محمد علي والاستعمار البريطاني كتب عن محمد علي - وحفيده الخديو عباس حلمي الثاني على عرش مصر يحتفل بمرور مائة عام على تأسيس دولته - فقال : (ماذا صنع محمد علي ؟ . . . لم يستطع أن يُحجى ولكن استطاع أن يميت ! . . . اشرأبت نفسه لأن يكون ملكاً غير خاضع للسلطان العثماني . فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب الأوروبيين فأوسع لهم في المحاملة !

. . . وانقلب الوطني غريباً في داره غير مطمئن في قراره . فاجتمع على سكان البلاد ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية ، وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة . . .) .

وقال عن محاربة محمد علي للدين : (لا يستحي بعض الأحداث من أن يقول : إن (محمد

(١) أول النقباء وأشهر المحامين في العالم العربي - انظر (المحامون وسيادة القانون) للمؤلف طبعة ١٩٧٦ ص ١١ إلى

على جعل جذران سلطانه بنيةً من الدين^(١) . أتى دين كان دعامة لسلطان محمد علي ؟ دين التحصيل ! دين الكبراج ! دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟ وإلا فليقل لنا أحد من الناس : أى عمل من أعماله ظهرت فيه راحة الدين الإسلامى الجليل ؟ لا يذكرون إلا « مسألة الوهاية » وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين

ولا عجب - وهذا رأيه فى محمد على وفى (المسألة الوهاية) - أن يقول فيه أنصار محمد على وأعداء ابن عبد الوهاب : (إن مبنى أصول محمد عبده فى ضلالتة على أصول ابن عبد الوهاب)^(٢) .

• • •

(١) كان فهم محمد على وأسرته للدين مجرد إقرار بالإيمان دون القيام بعمل صالح أو إدراك صحيح لحقائق التوحيد . ومن أمثال ذلك دعوة حفيده إسماعيل علماء الأزهر ليقروا صحيح البخارى إبان هزائم جيشه فى حرب بالحشة لينصر الله الجيوش . يذكروا يقرون فى النصر وكانت الجيوش تهزم فى الميادين فقال لهم : إما أنكم لا تعرفون وإما أنكم لستم بعلماء ! فاجابه واحد منهم : إن النبى ﷺ يقول : تأثرن بالمعروف ولتهبون عن المكر أو ليلطن الله عليكم شراركم فبدعو خياركم فلا يستجاب لهم) .
(٢) عبر محمد عبده عن المنهج السلبى بصرته فى الكفاح ومخالفاته أصدق تعبير وواجه الملحدين والدهريين والمنكحيين . يقول فى كتابه رسالة التوحيد :

إن الله وهب لنا الحواس وغرز فيها من القوى مانصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بعينه . له أو عليها . وأما ماتحير فيه مداركنا وتقصير دونه قوتنا فذلك إنما يرد إلى الله وحده . فليجوز أن نخشع لإلهه ولا نعبدن إلا إلهه لا يسوغ لنا أن تلجأ إلى أحد غير الله فهو وحده مالك يوم الدين اجتبت بذلك جذور الوثنية وماولها بما لو خلت فى الصورة والشكل أو العبارة أو اللفظ لم يختم عنها فى المعنى والحقيقة . فتبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة وتخلصت تلك الظهارة من الاختلاف فى المعبودين وعبرهم . وارتفع شأن الإنسان وسعت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض قاهر الناس أجمعين سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعة من الإرادة الإلهية أو أنها هى : كإرادة الرؤساء والسيطرين ، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما ظن فى القبور والأحجار ، والأشجار والكواكب ونحوها وانفكت عزيمته من أسر الوسايط والشفعاء والكهنة والعرقاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومتحلل حتى الولاية على العبد فيها بينه وبين الله الزاعمين أهم وسيلة النجاة

صار الإنسان بالتوحيد عبداً لله خاصة - حراً من العبودية لكل منسواه ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس النهم وخلوص العمل من العوج والرياء ضالاب الإسلام بالعمل كل قادر عبه . ويقول فى الاجتهاد والتقليد : (أتى الإسلام على التقليد وأقتلت أصوله الراسخة وصاح بالعقل صيحة أزغته من سباته علا صوت الإسلام على وسوس النفاق . وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام . ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وإنما لمعلمون منبئون ومرشدون إلى طريق البحث هادون . عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم فأضل بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان قد استعبده . يقضى فيه بحكمه وحكمته !

بهذا وما سبقه لم للإنسان أمران عظيمان طغيا حرم منهما : وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر . وبهذه كلمت له إنسانيته وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريه : إن نشأة القندية فى أوروبا إنما قامت على هذين الأصلين ولم =

أعلن محمد عبده - بعد تقلبه في الوظائف وأسفاره في الممالك وكفاحه لإصلاح الجماعة أنه في طول حياته كان يتأخى « المنهج السلقي » الذي يستعمل العقل ويتسع للاجتهد ، فقال في مذكراته التي كتبها في خواتيم حياته :

(ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف بالرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله . . . وقد خالفت في الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا الدهر ومن هو في ناحيتهم .

أما الأمر الآخر فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير . . .

وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في أمرين : كليهما يمججه الذوق وتنكره لغة العرب . . . وأضاف أن الحكومة العادلة هدفه ، وأن الوسيلة إليها هي بذل بدور التعليم وتربية غراسها في الأمة . قال :

(وهناك أمر ثالث كنت من دعائه والناس جميعاً في عمي عنه وعن تعقله ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ؛ وما أصابهم الدهر بالضعف والذل إلا بسبب خلوه مجتمعهم منه وذلك هو التمييز ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على

= يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد السيد المسيح ، وقرر هذا الحكم أن هذا الإشعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الأزمان . . . !) .

ويقول : (واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زما وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً فوقف وقفة القائد خذته الأنصار . . . لكن الله بالغ أمره ، فاعدلت إلى ديار المسلمين أُمم التار يقودها جنكيز خن ، وتغلبوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين . . . ولم يلبث عفاهم أن اتخذوا الإسلام ديناً . جاءوا لشقوتهم فعدوا لعادتهم . . .)

ويقول في الصفات : (ويجب أن يقتصر الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ، ولا يجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني ، وشرط صحة الاعتقاد ألا يكون فيه شيء يحس التنزيه وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين . فإن ورد ما يوهم ظاهره . . . وجب صرفه عن نظاهر : إما بتسليم الله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد وإما بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة) . ثم يقول : (إن الثقلين يجوز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا في مجرى العادة ، بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، وظلها لا يكون إلا يصير يختص الله به أهل الدار الآخرة) .

ويقول في خوارق العادات والكوامات على يد غير نبى : (وإنما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه يجب عدم الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى الله معين بعد ظهور الإسلام ، فيحوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى ، ولا يكون بإنكار هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ولا مانعاً عن منه صحيحة ولا منحرفاً عن لصرائط المستقيم ، اللهم إلا أن يكون مما صرح في السنة عن انصحابه . أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين في هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها هم الأصفياء ، وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأوليؤه وأهل لعلم أجمعون) .

الحكومة . . . جهرنا بهذا القول والاستبداد في عقنونه والظلم قائم على صولجانه . . . ! نعم إني في كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع ، ولكنني كنت روح الدعوة ولا أبرح أدعو دعوتي في الدين ، وأطالب بالإصلاح في اللغة وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليلد الله بعد ذلك تدبيره ، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنبها الأمم من غرس تعرض ، وتقوم على تنميته السنين الطوال . . .)

المنهج الإسلامي منهج علمي :

كان كل واحد من المصلحين الذين أسلفنا ذكرهم مع اختلاف مذاهبهم ومواقفهم أبرز مفكر في جيله ، وكان إجماع طرائقهم على الأخذ بالمذهب السلفي ، ومبادئ دعوة محمد بن عبد الوهاب ، واتباع الأمة لكل منهم في مكانه وزمانه ، وتحقيق بعض الإصلاح الذي دعا إليه كل منهم : إن الأمر بالمعروف وتغيير المنكر كما صنع السيد أحمد ، وإن بالسلاح كما صنع المهدي ، وإن بالعلم كما صنع الشوكاني والألوسي ، وإن بحجج الآفاق والتربية كالسنوسيين ، وإن بالتعليم والتربية والمشاركة في إصلاح مرافق الحياة كمحمد عبده ، كان كل أولئك دلائل على أن « هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله » وهو العودة إلى الأمر الأول .

ولا جرم إن أظهر ما يستوقف النظر من دعواتهم :

١ - أنها تعيد الفكر الإسلامي إلى صفائه من تخليط الحشوين ، وتهدم الأفكار الباطنية والدعاوى الغيبية والعلوم اللدنية والانحرافات التي تصيب الفكر بالشلل والمجتمع بالتخبط والإزدة الفردية بالغيوبة الكاملة أو الناقصة .

٢ - أنهم جميعاً واجهوا تحديات العصر بمنهج علمي يحارب عدوين للأمة :

الأول : عدو لها من نفسها هو انعدام الثقة في نفسها والاستكانة أمام الطغاة ، والتواكل في انتظار الساء أن تمطر الذهب والفضة ، أو أن يساقط عليها الأولياء والشفعاء أو الشياطين النعمة أو النعمة أو اللقمة .

والآخر : عدو لها من خارجها - تردها جيوشه ، كلما رفعت رأسها ، إلى مجتمع الخرافات والغيبيات ، وتفرض عليها الشحنة والشقاق كهينة ما فرض هذا العدو نفسه بالسلاح تعاطي الأفيون على شعوب الصين .

ولقد كان عدواً سافراً لكل المصلحين : يحوشه حيناً ، ويفتكه وسفكه أحياناً ، وبأعونه السافرين والمتوارين على الدوام .

٣ - أن أقرب سير السلف منهم كانت سيرة ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب وكان لها

الأثر فيهم ، فتشققوا كتشققهم ، ودعوا الناس صراحة للاقتداء بهم في منهجهم .

٤ - أنهم مجمعون على إيجاب الاجتهاد وذم التقليد ، والتفكير بحرية . مبتدئين بالقرآن والسنة ، ومتدين إليهما . وما هو إلا منهج السلف الصالح ، إذ يأخذ العلم من مصادره ، ويستفح بنعمة العقل الذي ميزنا الله به ، وأمرنا باستعماله . والاعتبار بواقع الكون وعجائبه التي أمكننا الله منها وأظهرنا عليها ، وأمرنا بالنظر فيها بحرية ، واستخلاص الدلالة منها بأمانة تقطع بوجوده سبحانه وتعالى . وعلى هذه القواعد - التزاهة والواقعية والأخذ بما هو محسوس وارتباط المعلول بالعلة - يجري الاستخلاص في سائر العلوم .

وهذا هو المنهج العلمي الذي أمر به القرآن وعلمته السنة .

“ ”

يقول الشافعي في « رسالة الأصول » : (وليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم . وجهة العلم الخبر في الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس) ويتكلم عن القياس فيقول : (أهو الاجتهاد أم هما مفترقان ؟ قلت : هما اسمان لمعنى واحد . . .) (. . .) والاجتهاد القياس .

(ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها . وهي العلم بالأحكام بكتاب الله ، فرضه وأدبه وناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه وإرشاده . ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله ، فإذا لم يجد سنة في إجماع المسلمين . فإن لم يكن إجماع فبالقياس . ولا يكون له أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقوال السلف وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب ، ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون صحيح العقل . وحتى يفرق بين المشتبه ، ولا يجعل بالقول دون الثبوت ، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه ، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد فيما اعتقد من الصواب .

وعليه في ذلك بلوغ جهده ، والإنصاف من نفسه ؛ حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك . ولا يكون بما قال أعنى منه بما خالفه ، حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك ، (إن شاء الله) . ويستطرد في بيان أساس طريقة التجربة والتزام الواقعية والموضوعية ونزاهة التقدير والتقرير فيقول :

(. . .) ولا يجوز أن يقال لفقهاء عدل غير عالم بقيم الرقيق أقيم (قوم) هذا العبد ولا هذه الأمة ولا إجارة هذا العامل ، لأنه إذا أقامه على غير مثال بدلالة على قيمته كان متعسفاً . . .) . ويقول في « الأم » لينهى عن الوهم والتخيل وليأمر بالتزام الواقع : (وإن زعمتم أن واسعاً لكم ترك القياس والقول بما سنع في أوهامكم وحضر في أذهانكم واستحسنه مسامعكم حججتم بما

وصفنا من القرآن ثم السنة وما يدل عليه الإجماع) .

ويقول : (. . .) فإن عدم واحدا من هذه الخصال لم يحل له أن يقول قياساً . . . كما لا يجوز أن يقال قس لأعمى وصفت له . . . وهو لا يبصر ما قبل له . . . أو يقال سر بلاداً لم يرها قط ولم يأتها قط . . . وليس له فيها علم يعرفه . ولا يثبت له فيها قصد سمت يضبطه ، لأنه يسير فيها على غير مثال قوم . وكما لا يجوز لعالم بسوق سلعة من زمان ثم خفيت عنه سنة أن يقال له قوم . . . لأن السوق تختلف . . . ولا لرجل أبصر بعض صنف من التجارات وجهل غير صنفه . . . قوم كذا ؛ كما لا يقال لبناء انظر قيمة الخياطة ولا خياط انظر قيمة البناء . !) .

ويقول في « الرسالة » عن وجوب الأخذ « بالظاهر » . (العلم من وجوه . منه إحاطة في الظاهر والباطن ، ومنه حق في الظاهر . فالإحاطة منه ما كان نص حكم الله أو سنة لرسول الله نقلها العامة عن العامة ، فهذان السيلان اللذان يشهد بهما فيما أحل الله أنه حلال وفيما حرم أنه حرام . وهذا الذي لا يسع أحد عندنا جهله أو الشك فيه . وعلم الخاصة سنة من خير الخاصة يعرفها العلماء ولم يتكلفها غيرهم . . . وهي فيهم أو بعضهم يصدق الخاص المخبر عن رسول الله بها . وهذا اللازم لأهل العلم أن يصيروا إليه . . . وهو الحق في « الظاهر » كما نقتل بشاهدين . وذلك حق في الظاهر . وقد يكتن في الشاهدين الغلط . وعلم إجماع وعلم قياس . . .) . ويقول : (وأيه كان فقد فرقوا بين حكم الظاهر والباطن ، وألغوا المأمم عن المجتهد على الظاهر ، وإن أخطأ عندهم ، ولم يلغوه عن العامد) .

وحجة الأخذ بالظاهر من التصرفات والعبارات قوله عليه الصلاة والسلام : « إنكم بشر وإنكم تختصمون إلي فليحل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار) . وبنى الشافعي على ذلك : (فمن قضى بثوهم منه على سائله ، أو بشيء يظن أنه خليف به ، أو بغير ما سمع من السائلين - فخلاص كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، لأن الله عز وجل استأثر بعلم الغيب وأدعى هذا علمه .) .

وفي تفسير العقود وإزالة الأوصاف عليها من الصحة والبطان يستبعد أى شيء « باطل » . ولا يقبل إلا « الظاهر » .

يقول في الأم : (يبطل حكم الإزكان (الفراسة لمعرفة كون العقد ذريعة لمحرّم) من الذرائع في البيع وغيرها . وتحكم بصحة العقد . وإذا أراد رجل أن ينكح امرأة ونوى ألا يمسها إلا يوماً أو عشرة وإنما نوى أن يقضى منها وطراً ، وكذلك نوت هي منه ، غير أنها عقد النكاح مطلقاً على

غير شرط) . ويقول (لا يفسد عقد أبداً إلا بالعقد نفسه . لا يفسد بشيء تقدمه ولا تأخر ولا بتوهم ولا بأغلب . وكذلك كل شيء لا نفسه إلا بعقده) .
ولئن كانت المعاني هي المقصودة لا المباني ، وإرادة المعنى أكد من إرادة اللفظ ، إن اعتبار المعاني لا يرتب الأحكام إلا أن يكون المتكلم قاصداً لها مريداً موجباتها .
والآخذون بالظاهر يتفقدون بكل نية «تظهرها» الدلائل من لفظ أو قرينة . فهي عندئذ أمر ظاهر .

• • •

وهذه الأصول من منهج الشافعي تضع نصوص الكتاب والسنة ومعانيها موضعها من الفكر الإسلامي كافة . وتلزم الناس الاجتهاد وسلوك وسائله وهي :

- ١ - تعلم .
 - ٢ - الاجتهاد وفحواه بذل الجهد واحترام الواقع الظاهر وإدارة المعلولات والعلل معاً .
 - ٣ - النزاهة الكاملة في تقدير وتمحيص العلل وترتيب النتائج .
 - ٤ - عدم الاستناد إلى نظريات مسبقة أو حقائق مفروضة والتزام ما يثبت .
 - ٥ - عدم الخضوع للميل الشخصي أو التفكير الباطني .
- وهذا هو المنهج الذي نقلته أوربة في فاتحة عصر النهضة بعد القرن الرابع عشر للميلاد ، بعد إذ قاومت الكنيسة المسيحية حرية الفكر وتدرّس العلم الإسلامي قروناً طويلة ، وألّزمت العلماء أن تنتهي نتائج أبحاثهم نهاية توافق مقولات الكنيسة ، مهما دلت الدلائل على النقيض . فحوكم الكثيرون وأعدم منهم بعضهم .

تابع الفقهاء المسلمون منهج الشافعي في أصول الفقه ، وانتقل المنهج ، لأنه قرآني ، إلى سائر فروع العلم الإسلامي في الطبيعة والفلك والطب والكيمياء والصيدلة والجغرافيا والتاريخ والجيولوجيا وغيرها .

وجرى العلماء كالفقهاء على المنهج ، وحسبنا الآن بعض أسماء نخنارها من كل فروع العلم :
من جابر بن حيان - أول كيميائي في التاريخ - في القرن الثاني للهجرة إلى الرازي الطبيب (٣٤٠ - ٤٢٠) إلى البيروني المؤرخ (٣٥١ - ٤٣٠) إلى ابن سينا الفيلسوف (٣٧٥ - ٤٢٨) إلى أبي الحسن بن الهيثم (٣٥٤ - ٤٣٠) عالم الطبيعة إلى المسعودي المؤرخ (٣٤٦) إلى القزويني الجغرافي (٦٠٥ - ٦٨٢) إلى التيفاشي (٦٥١ هـ = ١٢٥٣) الجيولوجي .

ومن هؤلاء انتقل المنهج إلى روجير بيكون (١٢٩٦) الذي نادى بتعليم المنهج الإسلامي ونقل

علوم المسلمين إلى أوربه كما تدفق سيل الترجمة إلى أهل أوربه من جامعاتها الكثيرة وشهدنا في القرن السابع عشر من الإنجليزى فرانسيس بيكون والفرنسى ديكارت (١٦٥٠) تفاصيل منهج جديد هو المنهج الإسلامى ذاته ، وتبعه العلماء فى أوربا وأمريكا ولا يزالون يتبعونه^(١) .
وبانتصار الحرية الفكرية على قيود الكنيسة بدأت أوربة نهضتها المعاصرة . وباستعمال منهج التجربة والاستخلاص بلغت الحضارة العلمية والتكنولوجية مبالغها الحالية .

• • •

وبعد : فى العالم الآن حضارتان ماديتان تجاريان .

الأولى : حضارة ورثها الغرب من وثنية اليونان والرومان ملاكها القوة والسيطرة وإطلاق العنان للإرادة «الفردية» ، لم تحولها المسيحية عن طبيعتها الوثنية ولم تصقل منها إلا الظواهر .
والأخرى : ملحدة لا تعترف بوجود الله . وتحتكر الدولة فيها السلطة والملكية والحرية .
ولقد أفلست الحضارتان لخلوهما من الروح وفزعهما من الغد ، وانتهى بهما السباق إلى غير غاية ، وسيطر عليهما الرعب النووى الذى يمت البشرية تفارق ، يوماً بعد يوم ، ليدمرهما ، يوم يفرغ المسابقان ما يجترنان من القنابل الذرية . وهى إذ تتجج وتختزن سوف تستعمل .
وانصرف أصحاب الحضارتين إلى تعاطى وسائل النسيان بالمخدرات تمتلئ بضحاياها المستشفيات الخاصة بالمدمنين فى كبرى العواصم ، وإلى الاستكثار المجنون من لذات الجسد ورفاه البدن وتكاثر السلع ، يعيشون بها أياماً لا يتقون فيها ويخافون غدها .
وكلتا الحضارتين تسترقّ الناس للإنتاج الكبير الذى تدفعه الآلات إلى أيديهم ولا تسعد به نفوسهم ، وكلما ألهاهم التكاثر زادوا قلقاً ورهقاً !

والحضارتان تبحثان عن قيم اجتماعية جديدة ، وكمثلها العالم الصاعد : فالأرض مفتوحة أمام قيم الإسلام وعقيدته لإصلاح أى مجتمع عصرى بالمنهج الإسلامى ، الذى عبر عن قيمه ظاهر ابن الحسين فى وصيته لابنه إذ ولى خراسان . فقال له .
(وليكن كثر خزائنك فى عمارة الإسلام وأهله) .

فالقيم الدينية تحدث القيم الاقتصادية وتطب لأدواء الحضارات جميعاً .
وإنما يضع الحواجز لقمع انتشار الإسلام فى الأرض المفتوحة أمامه ترويج أعدائه الخرافات المرجفين من أبنائه ، ومحاولة أعدائه إخفاء المنهج الإسلامى الذى تحققت به الحضارات ، كى لا يدرك الناس أن فى الإسلام شفاءهم ، وأن منهجه العلمى ومنهجه الاجتماعى يتخطيان مجازاة العصر إلى استباق أسباب التقدم .

(١) راجع كتاب المنهج العلمى المعاصر مستجد من القرآن للمؤلف دار الاتحاد العربى للطباعة سنة ١٩٧٦ ص ٩ - ٥٣ .